الفصل الثاني

المسارات الأولى

الفصل الثاني
المسارات الأولى

1- انتفاضة الجسم:

عندما تنطق أمامنا كلمة "مراهقة" يخطر ببالنا لأول وهلة نمو الجسم الذي تزداد سرعته، وكذلك التغيرات الداخلية التي ستجعل الكائن الحي قادراً على القيام بمهام النضوج، وهذه هي "انتفاضة الجسم" التي تسترعى انتباهنا في أول الأمر، وهكذا تكون الطريق الأول الذي نطرقه. ولكننا سنجد أمامنا كذلك طريقا آخر مضاداً، إذ يتجدد الإحساس في هذا السن بالحب والانفعالات، ويصير حتى عند ذوي الطبيعة المثابرة، محوراً أساسياً للنشاط النفسي وهكذا ترتبط انتفاضة الجسم " بانتفاضة القلب".

ولا يقترب هذان الطريقان بمحض الصدفة، بل إن تجاورهما لا يفيد إلا في إبراز مدى ارتباط الحياة العضوية بالحياة العقلية، وهذا ما يوجد أيضاً في كل مرحلة من مراحل الحياة، ويعبر ظهور الغريزة الجنسية، وهي غريزة جوهرية تقع على الحدود الفاصلة بين الجسم والنفس، عن الوحدة بين الانتفاضتين.

ومن السهل أن نلحظ ما يمثله نمو الجسم في المراهقة. فعلى شاطئ البحر حيث تقيم للاستجمام، ترى أخوان في لباس الاستحمام. انظر إليهما جيداً، فإن أكبرهما يكاد يكون في العشرين من عمره بينما الأصغر يناهز العاشرة. ويختلف جسماهما في الطول والبنية والنسب كما تتعارض المشية الوثابة عند أصغرهما

مع المشية المرنة المستطيلة عند الآخر. وتتناقض كذلك الأشكال الدائرية غير المحددة عند الطفل مع وجه أكثر تعبيراً وعضلات أكثر وضوحاً عند الشاب. وبينما هما يتحادثان. يتناوب في حوارهما صوت طفلي حاد ورفيع وصوت آخر خشن يصاحبه قرار خفيض.

فإذا واجهنا النمو العضوي عن قرب، لميزنا له في الجسم ما يسمى فقد وايزمان Soma، أي الغلاف الجسمي الذي يولد ويكبر ثم يموت، وأيضاً Germen أي الخلايا التناسلية التي لا تموت أبداً، إذ إنها تستمر بالإخصاب عبر الأجيال المتعاقبة.

سن الملابس القصيرة جداً: والمراهقة سن الملابس القصيرة جداً، وهذا ما يعنى بعبارة أخرى تزايد سرعة طول القامة. فالطفل يكبر بسرعة كبيرة في أول الأمر: فيتضاعف متوسط طول القامة فيما بين الولادة وسن الخامسة، ثم تدل منحيات الإحصاء على تناقض هذه السرعة حتى تبلغ الحد الأدنى عند سن العاشرة وبعد هذه "الراحة" ، ينتفض النمو من جديد في حوالي السنة الثانية عشرة عند الولد، وقبل هذا بسنة تقريباً عند الفتاة. وتبلغ زيادة طول القامة ما بين 20 سم و 25 سم ، وهذا قليل بالنسبة للنمو في مجموعه، ولكنه يدهشنا لأنه يظهر لنا كنوبة مفاجئة سريعة أحياناً. وقد تحدث خلال عدة شهور في أثناء مرض طويل مثلاً- زيادة تقدر بعشرة سنتيمترات وأكثر ، قد تمتد في أحيان أخرى على مدى عدة سنوات. ويلاحظ جودان Godin أن النمو لا يعرف مطلقاً الانتظام ، فهو متقطع بدرجات متفاوتة ويبدو إيقاعه مرتبطاً ليس فقط بالمزاج الفردي، بل أيضاً بظروف الوسط الخارجي، كما أنه يكون أكثر أهمية في الصيف عنه في الشتاء.

ويغير النمو كثيراً من نسب الجسم، فللطفل رأس كبير على جذع وأطراف

قصيرة نسبياً. أما في بداية المراهقة، فتطول الساقان بسرعة حتى إن عدداً كبيراً من الشبان يبدون وكأنهم يسيرون على عكاز، وتزداد سرعة الحركة في منطقة المفاصل حتى إن الجلد يكاد لا يصل إلى نفس النمو، فتحدث عند الركبتين انتفاخات تظهر شرائحاً عرضية من الجلد أكثر شحوباً، وتسمى "تشققات النمو"، ثم ينمو الجذع بدوره بسرعة حتى يصل إلى شكل الشخص البالغ، وفيه تكون العلاقة بين الأطراف السفلى وباقي الجسم- كما يقول تقرير مانوفرييه Manouvrier أقل قليلاً من الواحد الصحيح. وهذا التناوب يوجد في كل جزء من الهيكل العظمي ، فيطول أو يزيد عرضه على التوالي.

ولكل جزء في الأطراف سرعة نمو خاصة به: فتكبر الأيدي والأقدام عادة أسرع من باقي الذراع أو الساق، وينتج عن هذا ثقل عرضي في الحركة. وتبدو الرأس كما لو كانت قد أفلتت من هذا النمو الجسمي: فإن حجم الجمجمة يزداد ببطء، وهكذا يكون غطاء الرأس هو القطعة الوحيدة من الملابس التي يمكن استخدامها من سنة لأخرى.

وهذه هي الدفعة "الأخيرة" في الهيكل العظمي إذ تقل الزيادة في الطول في حوالي السادسة عشرة وخاصة عند الفتاة وعند سن العشرين، تقل كثيراً جداً إذ لا تقوى العظام على النمو عندما يختفى غضروف المفصل، وهذا ما يحدث فيما بين سن العشرين والخامسة والعشرين، فتأخذ عظمة الفخذ مثلاً شكلها النهائي في حوالي سن الثانية والعشرين.

ويظهر نمو مماثل في بعض الأحشاء، إذ يبلغ معظمها الحد الأقصى من الثقل عند المراهقة: وهذه هي الحال بالنسبة للكبد. وأسرع نمو يقع في القلب الذي يكاد يتضاعف حجمه فيما بين سن الثانية عشرة والسادسة عشرة ، وفي

نفس الوقت يزداد التوتر الشرياني، كما يصل القلب إلى وزنه النهائي تقريباً وهو 52.% من الوزن الكلي للجسم. وعلى العكس من ذلك . يكاد المخ - الذي يبلغ ثلاثة أضعاف وزنه في السنة الأولى من الحياة- لا ينمو بعد السنة الرابعة عشرة من العمر، ويكون متوسط وزنه فيما بين سن الرابعة عشرة والعشرين 1374 جم عند الأولاد، 1244 جم عند البنات ثم يتناقص قليلاً.

وتتغير إيقاعات الحياة كذلك، فتنخفض ضربات القلب التي كان عددها 135 عند الولادة إلى 90 قبل المراهقة مباشرة، ثم إلى 75 عند الولد و 80 عند البنت، ويتنفس الشاب بسرعة أقل من سرعة تنفس الطفل، ولكن القدرة التنفسية التي تلاحظ من خلال جهاز قياس النفس تزداد بشدة فيما بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة: وهذه هي إحدى الدلائل الهامة الحيوية.

وتثبت ملامح وجه الشاب وتحدد معالمه، فتكبر الأنف عادة بسرعة أكبر من باقي أجزاء الوجه ويزيد عرض الفك ويتغير لون البشرة ويصبح أكثر نقاءً عادة. وتبدأ حدود الشعر على الجبين في فقدان انحناءاتها الطفلية، ويظهر تراجعان خفقيفان في أعلى الوجنتين. ويقل تغير ملامح الوجه عند الفتاة المراهقة، فتحتفظ باستدارتها، ولكنها تزداد رقة وتصبح أكثر تعبيراً.

وتفوق زيادة وزن الجسم زيادة للطول، ويزداد الوزن في الجنسين في حوالي سن الثانية عشرة، فبينما كانت الزيادة السنوية تتراوح بين كيلو جرام واحد أو كيلو جرامين، ترتفع إلى اربعة أو خمسة كيلو جرامات فيما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة. ويختفى الشحم المخزون الذي كان يوجد قبل البلوغ بينما تقوى العضلات بسرعة، وترتفع القوة العضلية التي تقاس بالديناموميتر إلى ثلاثة أضعاف وتبلغ منتهاها فيما بين سن الخامسة والعشرين والثلاثين ، ولكن هذا التقدم يكون أسرع بكثير عند الشاب منه عند الشابة: ففي سن الثانية عشرة تكون

قوة الأول معادلة لضعف قوة الثانية. وتقوى الأطراف السفلى في البداية ثم يأتي دور الظهر والذراعين: فمثلا تتضاعف صلابة قبضة اليد فيما بين سن الرابعة عشرة والسابعة عشرة.

وفي نهاية المراهقة، يمكن القول أن الجسم قد تجاوز حالة الطفولة إلى حالة قريبة من النضوج، فقد وجد أنه ابتداء من سن السابعة عشرة ، لم يبق للولد إلا أن يحصل في المتوسط على 1/10 قامته و 1/3 وزنه كي يصل إلى حالة النضوج.

الأنماط الشكلية: تتراوح أهمية النمو تبعاً للأفراد، فعادة ما يصبح الأطفال الطوال بالنسبة لسنهم رجالا ذوي قامات عالية، وقد ينقلب النمط الشكلي عند البلوغ، ولكن هذه حالة نادرة عند السويين من الأفراد، إذ تتحدد فيهم معالم النمط فقط. ومنذ ربع قرن، قامت محاولات لدراسة الأمزجة والتكوينات من خلال نسب الجسم حتى يتسنى الوصول إلى تصنيف للأفراد وهكذا فرق كريتشمار Kretschmer بين نمط رفيع طويل أسماه "الواهن leptosome" ونمط قصير سمين أسماه "البدين pycnique" ففي النمط الأول يبالغ النمو البلوغي عادة من النحافة ، وتضيق الأكتاف وتضمر الأطراف وينحف الوجه ويطول: وهذه هي مجموعة "الواهنين" الضعاف ذوي الحركات المفككة. وهناك آخرون ينتمون أيضاً إلى النمط الطويل ولكن لهم طبيعة أكثر قوة، فيزيد نمو عضلاتهم، وتكون رقبتهم أقوى وأكتافهم أعرض، ويكونون مجموعة المراهقين "الرياضيين Athletiques" وينالون حظوة كبيرة في الملاعب الرياضية وعلى العكس من ذلك يظل النمط البدين مكتزاً بالرغم من النمو البلوغي ويحتفظ بوجهه الطفلي الضخم المورد وبأطراف سفلى أكثر قصراً من باقي أجزاء الجسم. ويوجد أخيراً من بين الشباب من لهم نمو لا يتم بطريقة متسقة وهؤلاء هم "dysplasiques"

ولكن حالتهم هذه يختص بها علم الطب وحده.

وهذه الأنماط الشكلية المختلفة، وبخاصة النمط البدين منها، لا تصل إلى نموها الكامل إلا عند النضوج. ولكنها تتميز عن بعضها البعض منذ المراهقة، ونضيف أيضاً أنها تكون أكثر وضوحاً عند الرجل عن المرأة.

البلوغ: وإلى جانب التغيرات الجسمية التي تختص بها البنية، توجد تغيرات ترتبط بتطور الخلايا التناسلية وهي أكثر أهمية وتحدد ما يسمى بالبلوغ، وإحدى العلامات المميزة له هي ظهور الشعر خاصة في المنطقة التناسلية، فليس للطفل عدا فروة شعر الرأس إلا بعض الزغب الناعم. وفي حوالي الثانية عشرة، ينمو عند الفتاة، وبعد ذلك بسنة واحدة عند الولد، شعر في العانة، ينثر عليها في أول الأمر ثم يزداد كثافة فيما بعد. وتمر سنة أخرى قبل أن يظهر شعر الإبطين، كما يغزر شعر الحاجبين. وفي حوالي سن السادسة عشرة يظهر ظل شارب فوق الشفة العليا ويغزو الشعر الذقن ايضاً حتى يضطر المراهق لحلاقته، ويعتبر هذا حدثاً في حياته يسبقه تفكير وتردد. ولكنه ما أن يتخطى هذه العقبة حتى يشعر أنه قد صار رجلاً.

ويعرف الوالد تجديدات أخرى، فيقلق لظهور بقع سوداء على جلده وبخاصة حول أنفه وعلى ذقنه أو على كتفيه وتزداد إفرازات الغدد الدهنية وتسد بعض مسام الجلد. ومن هنا كان حب الشباب، وهو شائع، ولكن ليس له عادة من خطورة إلا في نيله من اعتداد الشاب بنفسه ويعتبر تغير الصوت أيضاً حدثاً هاماً. ويختلف توقيته تبعاً للجنس وللمناخ، فتنمو الحنجرة عند البلوغ وتبرز تفاحة آدم ويزيد طول الأحبال الصوتية فيأخذ الصوت - وكان من قبل حادا- نبرة خشنة غير مستحبة، وتستمر عدة شهور ثم تنخفض حدتها خلال عدة أسابيع، وأخيراً تثبت، وفي حوالي سن السابعة عشرة ، تختفي آخر الاضطرابات

الملازمة لهذا التغير. ويتغير صوت المرأة أيضاً، ولكن بطريقة تكاد تكون غير محسوسة، وتثبت نبرته المعبرة في حوالي سن الخامسة عشرة.

ويكمل البلوغ الأنثوي من جانبه بنمو الثديين والحوض، فيتكور الثديان منذ سن الثانية عشرة ثم يأتي بعد ذلك دور الحلمات بينما تكون المجاري اللبنية والغدد المفرزة للبن، أما عند الشباب فيقتصر الأمر على مجرد انتفاخ بسيط والإحساس ببعض الحكات الخفيفة. ويلاحظ اتساع حوض الفتاة فيما بين سن العاشرة والخامسة عشرة ، ويزيد محيطه بحوالي العشرين سنتيمترا، وهذا ما يعطى لجسم الأنثى شكله المميز.

وتسمى كل هذه التغيرات الشكلية" بالخصائص الجنسية الثانوية" على عكس الخصائص الجنسية الأولية التي توجد منذ الولادة، وتعلن عن قدوم ظاهرة هامة وتعبر تعبيراً أساسياً عن البلوغ بقيام الوظيفة التناسلية عند نضج الخلايا التناسلية وهي "البويضة" أو الخلية الأنثوية والحيوان المنوي، أو الخلية الذكرية.

والحدث الهام لدى الفتاة هو ظهور الطمث الأول في اللحظة التي تبدأ فيها الدورة الشهرية لنمو البويضات، فإن البويضات التي توجد في المبيض منذ المرحلة الجنينية ، تتحول أثناء الطفولة إلى "حويصلات جراف" التي تحوى كل منها بويضة، وتعطى هذه البويضة التي تخرج أثناء الدورة التي تستمر حوالي ثمانية وعشرين يوماً- إذا ما لحقت بالحيوان المنوي- بيضة هي أصل الجنين، ويعلن ظهور الدم الأول- وهذا ما يحدث بعد ذلك دورياً- عن نهاية دورة نمو البويضة.

ويختلف سن ظهور الطمث تبعاً لظروف عدة، ومتوسط هذه السن في فرنسا بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، ولكن هناك فتيات يحضن بطريقة طبيعية

منذ سن الحادية عشرة، وأخريات عند سن السابعة أو الثامنة عشرة. وهناك حالات استثنائية تتخطى هذه الحدود بكثير، وتعتبر درجة الحرارة سبباً رئيسياً لهذا الاختلاف. والجنس سبب آخر، ففي الولايات المتحدة، تحيض الفتيات الهنديات قبل الفتيات البيض، والوسط الاجتماعي سبب ثالث، فسن الحيض يكون أكثر تبكيراً في الطبقات الميسورة عنه في الطبقات الفقيرة، وفي المدن عنه في الريف، وهناك أسباب ذات طابع نفسي مثل القراءات والمشاهد الجنسية تعجل من ظهور الطمث ولا تعتبر نتائج هذه الدراسات مؤكدة، فقد كان من المعروف أن الفتيات في البلاد الحارة يحضن قبل فتيات البلاد الباردة، أي في سن الثامنة عشرة في منطقة لابونيا[1] وفي التاسعة أو العاشرة في الحبشة: ولكن وجد في بعض الأبحاث الحديثة ما يشير إلى أن التبكير يزيد كلما كان المناخ أكثر "إثارة" بمعنى ألا يكون حاراً أو بارداً على مدار السنة. وقد ظهر من الأبحاث أيضاً أن متوسط سن الطمث الأول قد أخذ في الانخفاض في الأجيال القريبة الماضية، كما حدث في هولندا والولايات المتحدة الأمريكية مثلاً.

ولا توجد عند الولد علامة محددة تدل على ظهور الوظيفة التناسلية، وهي اللحظة التي ترى فيها حيوانات منوية في السائل المنوي، إذ إن عند البلوغ تنمو الخلايا التناسلية التي تضمها الخصيتان، وكانت من قبل في كمون خلال مرحلة الطفولة، وتفرز هذه الخلايا الحيوانات المنوية بصفة مستمرة.

وهكذا نجد أن تكوين البويضة وإفراز الحيوانات المنوية حدثان أساسيان يرتبطان بالبلوغ ويصاحبهما نمو مواز في الغدد التناسلية، أي في المبيض عند الفتاة والخصيتين عند الشباب، وكذلك في الأعضاء التناسلية الخارجية. ويكاد ينتهي النمو الجنسي عند الفتاة في حوالي سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة ،

(1) إقليم في أوروبا يقع ضمن الدائرة القطبية وتقتسمه كل من النرويج والسويد وفنلندا وروسيا.

وعند الشاب في حوالي سن الثامنة عشرة أو العشرين، وهذا ما يمكن أن نسميه بالبلوغ الفسيولوجي المتوسط، ويختلف قليلاً عن البلوغ الشرعي وهو في فرنسا في الخامسة عشرة بالنسبة للمرأة وفي الثامنة عشرة بالنسبة للرجل، ويرى علماء البيولوجيا أنه يجب الانتظار خلال أربع أو خمس سنوات أخرى بعد ظهور الدلائل الأولى للبلوغ قبل حدوث النضج الجنسي الكامل. وهذه الفترة تعبر عن الحد الأدنى للمدة المتوسطة للمراهقة من الناحية العضوية، وتزداد قصراً كلما زاد سن النضوج تبكيراً.

دور الهرمونات والفيتامينات : أهتم العلم الحديث كثيراً بفسيولوجية النمو، وهذا ما أتاح له فرصة تحديد دور الهرمونات والفيتامينات بوجه خاص.

وقد أثبتت الأبحاث البيولوجية التي أجريت منذ عام 1900 أن الغدد الصماء تؤثر بشدة على النمو بالهرمونات التي تفرزها. وكان من أهمية هذه الهرمونات أن استطاع بند pende تصنيف المراهقين تصنيفاً يقوم على علم الغدد الصماء، وأهم هذه الغدد هي الغدة تحت المخية، والدرقية، والغدد التناسلية والغدد فوق الكلوية.

ويلاحظ أن الغدد ذات الإفراز الداخلي بوجه عام تتضخم خلال البلوغ ما عدا الغدة التيموسية التي تأتي على العكس منها في الضمور. وفي نفس الوقت تصب هذه الغدد في الدم هرموناتها التي تبدأ في تنظيم المظاهر المختلفة لانتفاضة الجسم. ويحقق مجموع هذه الإفرازات اتزاناً مزاجياً جديداً. وقد أمكن منذ عدة سنوات عزل هذه الهرمونات والاحتفاظ بها في صورة بلورات. ويؤثر بعضها على النمو الجسمي الخارجي. وبعضها الآخر على النمو الجنسي، ويكون تأثيرها أشبه بموجتين متعاقبتين متلاحقتين، هذا ما كان لنا أن نتحدث عن

"الموجة" فيما يختص بالمواد الكيمائية التي تنتج بكميات ضئيلة. وهكذا يخضع طول الهيكل العظمي لتأثير الغدة الدرقية والغدة تحت المخية. ثم يبطئ النمو الجسمي ويصبح البلوغ ممكناً بفضل تأثير نوع جديد من هرمون الغدة تحت المخية وهرمونات التناسل مثل الهرمونات الذكرية التي تفرزها الخصية والهرمونات الأنثوية التي يفرزها المبيض[1].

وتأثير الهرمونات أكثر تعقيداً مما كان يتصور في الماضي، فنحن نعرف اليوم أن نفس الغدة ، مثل الغدة تحت المخية مثلاً، تفرز عدة هرمونات لكل منها دور خاص به، كما أثبتت التجارب أن كل هرمون يمارس تأثيرات مختلفة تبعا للقدر الذي يستعمل به. وقد أمكن كذلك التمييز بين عدة مركبات ذات تكوين متقارب، ولم يكن يرى فيها من قبل إلا جسم واحد، فمثلاً إلى جانب الهرمون الأنثوي الذي ينظم ظهور الخصائص الجنسية الثانوية عند الأنثى (la folliculine) يوجد هرمون أنثوي آخر (la luteine) ويتدخل في النصف الثاني من الدورة الشهرية وهناك أمر آخر: فمع قيام التوازن بين الغدد الصماء، تؤثر في بعضها البعض، وهكذا نجد أن الغدة تحت المخية التي تبدو كما لو كانت قائداً للأوركسترا، تؤثر على عمل هرمونات الغدد التناسلية ، كما يرتد أي اضطراب فيها على حالة الغدة الدرقية. وأخيراً توصل البيولوجيون عن طريق تجارب أجروها إلى الاعتقاد بأن التأثير الهرموني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجهاز العصبي المركزي. وهكذا نرى أننا بصدد نظام هرموني كثير التعقيد[2].

ومهما يكن تعقيد دور الهرمونات فإنه لا يكفي وحده "لتفسير" انتفاضة

(1) ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى كتاب "النمو" تأليف مارسيل أبيلوس M.Abeloos من نفس هذه المجموعة.

(2) ارجع إلى كتاب "الهرمونات" تأليف ري p.Rey من نفس المجموعة.

الجسم، فإذا ما نقصت الهرمونات أو زادت، نلاحظ اضطراباً في النمو، ولذلك كان دورها ضرورياً. ولكن لا بد لتأثيرها المنشط من أرض صالحة، ونعنى بذلك الأنسجة والأعضاء التي لا بد وأن تصل لدرجة كافية من "النضج" حتى يتسنى للتفتح العضوي من الحدوث بصفة مستمرة وفي حالة النمو الطبيعي، لا بد من توافق بين تأثير الهرمونات والوسط النسيجي الذي يهيئ الفرصة لهذا التأثير. وهكذا نرى أن الغدد الصماء ما هي إلا "منظمات للنمو"، لا السبب الحقيقي فيه.

ويقع نمو الجسم أيضاً تحت تأثير الفيتامينات[1]، التي يستمدها بشكل كاف من التغذية الطبيعية، ولكن الظروف الحديثة للغذاء في المدنية، خاصة ظروف سوء التغذية الناجمة عن الحرب، قد تؤدي إذ لم نولها كل رعايتنا، إلى نقص في الفيتامينات وكذلك إلى إعاقة النمو. ولكن يبدو أن جسم المراهق يتجه بالفطرة. إلى سد هذا النقص بميله إلى الخضروات والفاكهة الطازجة وهي كما نعرف غنية بالفيتامينات[2].

ولعلك ستدهش للقدر البسيط الذي يسهم به الجهاز العصبي في انتفاضة جسم الشاب. والجهاز العصبي المركزي لا يقويه تغيرات هامة بعد سن التاسعة أو العاشرة، وكذلك الحال بالنسبة للجهاز التلقائي ولعلك تعرف أن تأثيره على حركة الأحشاء يعتمد على التوازن بين الجهاز السمبتاوي والجهاز البراسمبتاوى أو المعدى[3]. وفي الطفولة، يزيد أثر الجهاز البراسمبتاوي، أما في المراهقة

---

(1) خاصة فيتامين A الذي يؤثر على النمو العام، وفيتامين D الذي يؤثر على نمو الهيكل العظمى وفيتامين E الذي يؤثر على النشاط الجنسي.

(2) ارجع إلى كتاب "الفيتامينات" من تأليف جالو S.Gallot من نفس هذه المجموعة.

(3) يحوى الجهاز العصبي جهازاً عصبياً مركزياً، وهو العضو المنظم للعلاقة بالعالم الخارجي، وجهازاً عصبياً تلقائياً، وهو العضو المنظم لعمل الأعضاء، وينقسم الجهاز الأخير إلى جهازين ←

وكذلك في سن البلوغ، فيزيد أثر الجهاز السمبتاوى ويرى ماي Emay أن العلاقات بين الكائن والعالم الخارجي تضطرب عندما ظل انقباض الجهاز السمبتاوي ضعيفاً بعد البلوغ.

خصائص النمو في المراهقة:

ويمكننا الآن أن نذكر خصائص النمو عند المراهقين، فهو أولاً واضح "الجنسية" إذ تريد الاختلافات بين جسم الذكر وجسم الأنثى، بل يكون النمو الخاص بالفتاة أكثر تبكيراً وقصراً من نمو الشاب. وثانياً، يأخذ النمو غالباً عند البلوغ، شكل يسمى (50 أزن) على أساسها يمكن تفسير الاضطرابات التي تثيرها لدى الوالدين وأخيراً، يبدو النمو " كتشكيل" بمعنى الكلمة إذ تتضح الفروق الفردية، أما العناصر الوراثية التي كانت كامنة عند الطفل فتعمد وتحدد معالم مزاج كل فرد. وهكذا يأخذ المراهق شكله، وهذا ما سنجده أيضاً في المجال النفسي.

ولا يعني هذا التطور الحاسم في الجسم مقاطعة الماضي بأي شكل من الأشكال، ولكن أهمية التغيرات التي تلاحظ ترجع إلى حدوثها في نفس الوقت، ومن مجموعها أو من الارتباط بينها يتم للجسم فيما بين الثامنة عشرة أو العشرين اتخاذ شكل جديد تماماً.

←

متعارضين هما الجهاز السمبتاوى ويزيد من سرعة ضربات القلب ويثير اللعاب ويبطئ من تقلصات الأمعاء ويرخى عضلات الشرج والجهاز البراسمبتاوى الذي على العكس من الأول، يبطئ من سرعة القلب ويقلل الإفرازات الغددية ويزيد تقلصات المعدة . وكلا الجهازين، السمبتاوى والبراسمبتاوى، على علاقة وثيقة بالغدد الصماء، وتوجد بعض المواد الكيمائية أو الهرمونات لإثارة عمل هذين الجهازين أو إعاقته- ولدراسة أثر كل من هذين الجهازين في الشكل النفسي للفرد، يمكن الرجوع إلى كتاب "علم النفس التطبيقي لرينيه بينوا "ترجمه محمد زيدان وحلمي عزيز" عن دار الأنجلو المصرية للنشر.

أمراض المراهقة:

كثيراً ما يقال إن المراهقة سن حاسمة، إذ تهدد فيها الصحة كل أنواع الأخطار. ودون أن أتهم بالتفاؤل المفرط، يمكنني أن أقرر وجود بعض المبالغة في هذا القول الشائع، لأن غالبية الشباب من الجنسين يمرون في الواقع بهذه الأزمة دون ضرر كبير، وتبلغ نسبة الوفيات في الإنسان حدها الأدنى فيما بين سن التاسعة والثالثة عشرة، ثم يرتفع المنحنى بعد ذلك حقاً، ولكن ليدل على ارتفاع طفيف، ولا يرتفع من جديد بشكل ملحوظ إلا فيما بعد المراهقة، فإذا ما فحصنا الإحصائيات عن قرب، نجد أن نسبة الوفيات التي تكبر في بداية الحياة (في الأولاد أكثر من الفتيات) تقل بالنسبة للأولاد فيما بين سن السادسة والثامنة عشرة ، ثم ينعكس الوضع من جديد. وهكذا يبدو أن الجنس الأنثوي أكثر ضعفاً من الجنس الذكري أثناء أزمة البلوغ.

ومن بين الأمراض التي تصيب الشباب، يجب أن نذكر الاضطرابات الخطيرة في النمو، وترتبط في أغلب الحالات بسوء تنظيم إفراز الهرمونات. ولننحى جانباً التأخر الكبير في النمو، ويظهر منذ الطفولة ويتضح في مجموعة من الأمراض العقلية التي تسمى "الضعف العقلي l'obligophrenie" كالبله، وغالباً ما يموت المصابون بها عند البلوغ. وهناك أيضاً "القزمية le nanisme" و "الضخامة le gigantisme" أحدهما عن زيادة في النمو، والآخر عن نقص فيه، ويرتبطان باضطراب الغدد الصماء، كاختلال الغدة تحت المخية مثلاً. وأحياناً تسرع بعض الاضطرابات المماثلة من ظهور الوظيفة التناسلية أو تبطئ فيها، مع اختفاء الخصائص الجنسية الثانوية واحتفاظ الجسم بأشكاله الطفلية. ويصاحب هذا التأخير الملحوظ في البلوغ إفراط في السمنه ونقص في نمو الأعضاء

التناسلية. أما في حالات البلوغ المبكر جداً ، فيكون الأولاد عادة من النمط الهرموني، أما الفتيات فتكن مفرطات في السمنة.

وقد وجد الطلب في الهرمونات علاجاً جديداً وفعالاً للقضاء على أمراض النمو، وذلك باستخدام إفرازات الغدد الصماء للحصول على المواد التي تنقص المريض الشاب، ويؤدي امتصاص الهرمونات التي تتناسب الحالة إلى الشفاء في أغلب الأحيان، بل وإلى ظهور الدلائل الطبيعية للنمو الجسمي وكذلك ظهور الخصائص الجنسية الثانوية.

وفيما عدا اضطرابات النمو الجسمي والعقلي، لا يوجد إلا مرض واحد شديد الخطورة ويهدد المراهقين بصفة خاصة، وهذا المرض هو السل، فقد وجد أن بداية البلوغ هي اللحظة التي تلائم ظهور هذه الإصابة بأشكالها الخطيرة، أكثر من أي سن أخرى، ومن هذه الأشكال "السل السريع" مثلاً. ولكن ما تعليل ذلك؟ وليس هناك حتى الآن تفسيرات مؤكدة، ولكن الإجهاد ، وأسباب الحياة القاسية لها أثرها بلا شك، وكذلك التغيرات التي تطرأ على الجسم في هذه اللحظة ، فربما كانت تهيئ للسل تربة خصبة.

ولن أفيض في الجانب المرضى للنمو، فهذا هو مجال الطبيب، وتدور فيه حالياً أبحاث لها شأنها، ولكن خيل إلى، عند الحديث عن انتفاضة الجسم، أنه من الضروري أن أشير إليه لاستكمال الصورة. وعلاوة على ذلك، كان الشاذ دائماً هو سبيلنا إلى فهم الشخص السوى فهماً جيداً.

انتفاضة الجسم والتربية:

ولعلك لا تتوقع منى أن ألقى درساً في التربية، ولكني وعدت بتحديد كل المشكلات التي تعترض تربية الشباب، ولها فيما يختص بالنمو العضوي جانبان: فأي الوسائل يصلح لقيام نمو جسمي كامل ومتناسق؟ وأي احتياطات نفسية

وخلقية يجب اتخاذها إزاء هذه الانتفاضة.

ويقول أحد الكتاب: كل ما في الشباب حلم، عدا الجوع. ولا تصدق هذه العبارة إلا فيما يتعلق بأهمية شهية الشباب التي لا تقع، فقد وجد أن وجبة الغذاء للولد فيما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة يجب أن تكون بنسبة 8/10 من وجبة الرجل البالغ، أما وجبة الفتاة في نفس السن فتكون بنسبة 7/10 ويعنى هذا أن المراهق يجب أن يحصل على نفس وجبة المرأة ، وتقدر هذه بحوالي 7/10 من وجبة الرجل. ويعوق نقص التغذية النمو: وتؤيد هذا الرأي الأقاليم الفرنسية التي احتلت أثناء الحرب العالمية الأولى، كما أنَّ المركز الحالي لفرنسا يثير في هذا الصدد مشكلات خطيرة. ويجب أن نعمل على تزويد شبابنا بالغذاء الكافي مع مراعاة الجهود التي يبذلونها أثناء تدريباتهم الرياضية أو عند القيام بعمل عضلي مستمر.

ولنفرد كذلك مكاناً كبيراً للتربية الرياضية، ولا شك أن فرنسا قد رسخت أقدامها في هذا السبيل، فدخلت الحياة في الهواء الطلق ضمن ساعات التعليم. ويجب أن نهتم بالتمرينات السويدية والألعاب حتى سن السادسة عشرة، أما بعد أزمة البلوغ، فلنهتم بالرياضة وبأجهزة التربية البدنية، وتقتصر على الأولاد فقط. وكثيراً ما نوقشت هذه المسألة لمعرفة إذا ما كانت الأجهزة تعوق أم لا زيادة طول الهيكل العظمى، ولم نصل مع ذلك لجواب شاف، ولكن ما أن تقتصر على ما بعد سن السادسة عشرة حتى يمكن استبعاد الخطر المحتمل من استعمالها، وللرياضة الآن المكانة التي تليق بها، ولكن يجب أن نختار منها ما يناسب، فمن بين رياضات القوة، يبدو أن العدو هو أنسبها للمراهقة، وكذلك الرياضة الجماعية التي لا تستلزم جهداً متواصلاً كما هو الحال في رياضات القوة والتي تتيح فرصة للراحة لكل فرد من أفراد الجماعة. وتلائم التمرينات الريضاية المرأة أقل من

الرجل، إذ إن نتائجها فيها أقل من نتائج الرجال كما أن هذه النتائج تتناقص بسرعة. ومع ذلك، تبدو بعض الرياضات الجماعية مثل التنفس، صالحة للجميع، بينما لا تناسب رياضات أخرى مثل كرة القدم وكرة اليد الشباب، أما كرة السلة، وهي أقل خشونة وأكثر مرونة، فهي تتفق أكثر وإمكانيات الشباب.

ويخشى من التربية البدنية والعمل المهني أن يؤديا إلى إجهاد خطير إذ لم تحسن رقابتهما. ولذلك أقيم منذ قرن، في الصناعة، تشريع يتلافى الأخطار التي يتعرض لها الأيدي العاملة من الأطفال والشباب. وكذلك يلزم للتربية البدنية إشراف طبي مستمر ، فإذا ما أهمل ، فإن المراهقين يبذلون بوحى من كرامتهم وتحت تأثير حبهم للمنافسة ، جهداً يفوق طاقتهم، وإلا تعرض هيكلهم العظمى للتشويه، كما يؤدي الإجهاد المستمر للقلب إلى أمراض القلب.

ولا تقل الاحتياطات النفسية أهمية، فإن النمو، خاصة عند البلوغ، يداهم الشباب. ويزيد من قلقهم بقدر ما يصاحبه عادة من دوار وإحساس بالتعب وصداع. وقد يؤدي إلى إثارة بعض الأوهام وكذلك اضطرابات عقلية أكثر خطورة . ولذلك يجب أن نخطر المراهقين بكل التغيرات التي ستحدث لهم حتى لا يبالغوا في تقديرهم لها، وسنرى أن بعضهم سيعتقدون أنهم من الشواذ، ولذا كان من الواجب أن نهدأ من روع بالغي الحساسية منهم، الذين يؤلفون قصصاً حقيقية عما يجري لصحتهم.

والتحذيرات والنصائح الأولية ضرورية وبخاصة للفتاة التي يجب أن تعرف، وهي في حوالي الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها أن الطمث سيأتي يوماً، وقد يسبقه بعض التوعك وذلك حتى لا ترتاع عند ظهور الدم الأول. وهذا هو دور الأم، وعليها ألا تتخلى عنه إذا كان لها طفلة توشك على المراهقة، فالأم التي لا تحذر ابنتها في الوقت المناسب عن عدم مبالاة أو مبالغة منها في

الحرص، تعتبر آثمة، وعليها أن تنتهز الفرصة للتحدث عن الأمومة، أما فيما بعد فإن مادة رعاية الطفل تزود كل فتاة بمعلومات كاملة. وأخيراً، تسمح المحادثة التقليدية التي تجري قبيل الزواج ، للأم أن تمد ابنتها بالمعلومات اللازمة للحياة الزوجية.

أما الأب، فعليه واجب مماثل نحو أبنه، ففي حوالي سن الثالثة عشرة تكفي الابن بضعة كلمات حتى لا يتسبب تغيير صوته في بعض القلق له، أو حتى لا يعتقد أنه قد وصم بظاهرة الانتصاب أو الاستمناء الليلي. وكذلك على الأب، أثناء مراهقة ولده ألا يتردد، إذا ما حانت الفرصة (وكثيراً ما تحين إذا ما أراد هو ذلك) في توجيهه وتحذيره من العادات الخطيرة.

وقد طال اعتبار المسائل الجنسية من المحرمات، وإحاطتها بالأسرار ومع ذلك تضطرنا أهميتها للحياة إلى أن نأخذها في اعتبارنا في التربية. فعلى الوالدين، أو على المربي إذا ما ترك له الوالدان هذه السلطة، دور حساس وهام، ومع ذلك فعادة ما يهمل هذا الدور. فإذا ما تم أداؤه بمهارة وفي بساطة مع الحفاظ على ثقة الشباب، كان ذلك سبباً في قيام الاتزان العقلي الذي قد تعرضه انتفاضة الجسم للانحراف بشده ويمكن الاعتراض على ما يسمى، بعبارة قد تكون خاطئة "بالتربية الجنسية" ومع ذلك لا يمكننا إنكار أهميتها. فإذا ما ترددت في مواجهة هذا الموضوع مع أحد أولادك، فعليك أن تتساءل إذا ما كنت تفضل أن يحدثه عند زميل له سيئ السلوك، أو أن يصادفه عرضاً في إحدى قراءاته المحرمة. وإنى واثق الآن أنك ستدع عنك التردد.

والآن وأنا أنهى هذا الموضوع، يعتريني بعض الخوف. فهل شاهدت جيداً انتفاضة أجسام الشباب، بقوتها وجمالها رغم كل التفاصيل العددية وكل أنواع

الفشل التي تتعرض لها هذه الانتفاضة عند المرضى منهم؟ فإذا كانت الصورة قد تشوهت بالتعقيد، وهذا خطأ مني فعليك أن تتذكر المراهقين الذين تصادفهم في الطريق، وهم أشبه بالسيقان الفارعة اللدنة التي تحس أنها تمتلئ بالعصارة، ويحقق لها الشباب الصفاء والنضرة الجميلة. ولتقرأ في "الأوديسا" هذه الكلمات الأولى التي نطق بها أوليس إلى نوسيكا:"عندما أراك، أحسب أنى زرى نخلة كانت بالقرب من معبد أبولون في دبلوس وتصل الأرض بالسماء في انتصاب القوة".

2- انتفاضة القلب

ولنترك المجال العضوي لندخل في المجال النفسي. ولكن ألم نطرقه من قبل؟ إذ أن وجوهنا تفصح في الواقع عن مشاعرنا وميولنا، بل ولكل حركة تبدر عن عضلاتنا، ولكل وضع مألوف لنا معنى نفسي يجتهد الفنان في الاهتمام به، ويحاول عالم النفس أيضاً ألا يفوته، وبعبارة أخرى، يكون الجسم بطريقته الخاصة "تعبيراً" عن الحياة النفسية ، ولا تبتعد المراهقة عن هذه الحقيقة. ولكن رغم الارتباط الوثيق بين النشاط النفسي والنشاط العضوي، فإنهما لا يمتزجان، ولذلك سيجعلنا الطريق الثاني الذي سنسلكه على صلة بمجال الوظائف العقلية التي تتمثل في أكثر العلاقات بالجسم ظهوراً ، ونعنى به الوجدان.

ويرى المفهوم الشائع أن الوجدان يؤدي في المراهقة بالحب، ولكنا نرى في الواقع شيئاً أعقد من هذا بكثير، فإن قلب الشاب. لم يعد هو نفس قلب الطفل مضافاً اليه الحب. ولكن ترتبط نشأة الحب بتنظيم جديد وعميق للدوافع والعمليات العاطفية من خلال نمو يأخذ- كما حدث في الجسم- شكل انتفاضة حقيقية.

دعامات الطفولة: وتتوفر في الطفولة دعامات قوية توجه النمو اللاحق لها،

وهذه الدعامات هي المزاج، وهو عامل فطري ينظم منذ سنوات الحياة الأولى، مجموعة الانفعالات الأساسية: ويبدو التناقض واضحاً في هذا الشأن بين ردود العقل العاطفية عند الطفل السقيم الجبان، وردود العقل عند الطفل القوي المشاكس. وقد يحجب الاضطراب البلوغي لبعض الوقت تأثير المزاج الذي يظل مع ذلك قائماً: وهكذا لا نستطيع أن نتعرف تماماً على المراهقة إلا إذا كنا على إلمام بماضيه. وللمتاع العاطفي في الطفولة دعامة أخرى، وقد تبدو لنا قليلة الاختلاف، ولكنها مع ذلك ليست قليلة الأهمية، وتضم، إلى جانب السعي وراء اللذة التي يقوم عليها الحب، مجموعة العواطف التي تنشأ في الوسط العائلي والوسط المدرسي، فإن الاندفاعات العاطفية في الطفولة المبكرة، أي فيما قبل سن الخامسة أو السادسة، وكذلك التجارب الملائمة وغير الملائمة التي تؤدي إليها، تترك في اللاشعور "عقداً" وهي طاقات، وفي نفس الوقت فقط ضعف في الجهاز النفسي، تثقل على سلوك الفرد رغما عنه. وهذا ما يلاحظ عندما ندرس أصول مرض عصابي يظهر في المراهقة أو في سن النضج. وأخيراً ، تقع خلال الطفولة الدلائل الأولى للحياة الجنسية.

ونكون مبالغين إذا اتبعنا كل تفسيرات فرويد، فإن تصفيتها واجبة، وهذا ما يحدث فعلاً منذ عدة سنوات، ولكن دون أن نخلط بين ما هو جنسي Sexuel وما هو تناسلي genital يبدو مستحيلاً علينا أن ننكر أن للطفل نصيباً من الحياة الجنسية أثناء طفولته الثانية، أي من سن الثالثة إلى سن السادسة، ولا معنى لهذا التبكير عند الإنسان، فلعلك تعرف أن للقرود مثلاً سلوكا سابقاً لظهور الجنس قبل سن البلوغ بعدة سنوات، ولا يقتصر مثل هذا السلوك على القرود وحدها. ثم يهدأ الحماس الجنسي فيما بين سن السادسة والثانية عشرة ، وهذه هي مرحلة "الكمون" التي يتحدث عنها علماء التحليل النفسي، وفيها تنمو العواطف بدون

أي اتصال جسمي بين الصبية والفتيات أو بين الأطفال من نفس الجنس. وهكذا "يستيقظ" الدفع الجنسي في المراهقة ولا نقول "ينشأ" فإلى أن يأتي البلوغ ، يرافق هذا الدفع النمو فقط ويسير عليه، ولكنه منذ هذه المرحلة تتحدد معالمه وتثبت.

الغريزة الجنسية: وأول تجديد يتم في وجدان المراهقين هو ظهور الغريزة الجنسية[1] التي تدخل طورها الفعال منذ قيام الوظيفة التناسلية، وهي أحد المظاهر المثيرة إذ ربما تكون الفرصة الوحيدة التي يمكننا أن نلاحظ فيها تفتح غريزة جوهرية عند الإنسان ، هذا إذا ما أبعدنا غريزة الأمومة التي لا تفقد صلتها بها. وتظهر هذه الوظيفة في لحظة تكون فيها الحياة النفسية على قدر كبير من التطور بعد أحدثت فيها التربية أثرها البالغ. ولا شك أن لهذا السبب يعتبر تفتح الغريزة الجنسية لحظة عسرة، وتتعرض أكثر من غيرها لكثير من الأزمات، ولهذا السبب أيضاً، تقوم أمام دراستها عقبات يضاعفها الكبت الذي تفرضه الحياة الاجتماعية، وكذلك كتمان الشهوة. فلا تدهش إذن إذا ما لاحظت عدم كفاية لدراسات التي خصصت لها.

وتظهر النزعة الجنسية عند البلوغ ولها كل الخصائص الرئيسية للغريزة، أي كنزعة أولية لا شعورية موجهة، فيحس المراهق بحاجات جديدة لا تزال غامضة عليه، ورغبات قوية غير محددة تدفع للخروج من إطاره وتمهد لميله للجنس الآخر. ويصيب التذبذب سلوكه، وهذا ما يدهش له الاشخاص المحيطون به بينما لا يدهش هو به وتنتابه دفعات مفاجئة من الانعطاف، ونوبات من الانطواء لا يمكن تفسيرها وحركات غير لائقة تملأه أحياناً بالخجل. وهكذا يكون تأثير

(1) وسأستعمل "لفظة غريزة جنسية" ولو أن مدلولها أخذ يفقد وضوحه منذ عدة سنوات، وذلك للتأكيد على الجانب النوعي والوراثي في هذه النزعة-

الغريزة الجنسية في أول أمره خفياً وتوجيهها متردداً ولا ينفق مع الأساليب الوجدانية السابقة لها، وتسبب القلق للشخص الخجول، وتصيبه بما يشبه الحيرة والذهول وكأن قوة تعمل بداخله وتوجهه إلى هدف لم يتضح له بعد جيداً.

ويصاحب ظهور هذه الغريزة صحوة حقيقية في الحس الذي يضاعفه الخيال بكثير من الزخارف والنزوات. وسبق للطفولة الأولى أن عرفت اللذة الجامحة عن طريق الحواس، خاصة باللمس والذوق. أما عند البلوغ ، فتنمو مجموعة كبيرة من اللذات التي ترتبط إلى حد ما بالحياة الجنسية، فيميل الفتية والفتيات إلى العطور القوية التي تدور بها الرأس، وتحتل مكاناً بارزاً في زينتهم، ويصبح الفرد حساساً إزاء رائحة الشعر والجلد التي تسبب له نشوة جميلة، كما يبعث السرور في نفسه اتساق الألوان وجمال الأشكال، في الجسد العاري خاصة ، وطراوة اللحن أو الإيقاع الجديد. وتوحى إليه باللذة القراءات والأفلام والأسرار التي تصل إلى أسماعه همسا. وقد ثبت من تجارب أجريت أن هذا يرجع لاهتمام عاطفي ببعض الإحساسات أكثر من تقدم حقيقي للحس. وقد ينمو عند بعض الأفراد تيار عكسي، فيقاومون هذه الإثارة اللا إرادية لكيانهم كله، وذلك حباً منهم في الطهارة. وغالباً ما يوجد التياران متجاورين، فيمر نفس المراهق من أكثر الصور طهراً إلى أكثرها إثارة. وهكذا تثير الغريزة الجنسية في الشبان بوجه خاص، وعند الحدود النامية لشعورهم، ما يشبه "أمواجاً متلاطمة" من العشق.

وتمارس هذه الغريزة أثراً فعالاً وتصبح مصدراً للانفعالات التي ترتبط مباشرة برغبات ناشئة في كيان المراهق. ولكن تأثيرها غير المباشر يكون كبيراً ايضاً، فتغير بوجودها الحياة العاطفية في مجموعها تدريجياً حتى إنها بعد أن كانت لا تشغل في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إلا جزءاً محدوداً من

الإحساس، تنتشر بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات: وهكذا يتجه الوجدان كله، ومن قبله الحسم، إلى الجنس.

الانفعال المتزايد: والتجديد الثاني هو رجوح كفة العاطفة، ويرجع لثراء الحياة الانفعالية والخيال.

ومن المعروف أن الشباب من الجنسين يتأثرون بسهولة أكثر من الأطفال الذين لا يتعدون الثانية عشرة، إذا تكفيهم أحياناً كلمة أو تلميح أو حركة لتقوم عاصفة هوجاء. كما تحمر وجوههم للاشيء خاصة إذا كان هذا اللاشيء يشير إلى المجال الجنسي، وقد يؤدي الخوف من الانفعال إلى مرض "الخوف من الاحمرار L'ereutophobie" الذي تعرفه العيادات النفسية. وتمر بالفتيات عند البلوغ نوبات من الضحك الهستيري والبكاء بصوت عال، إذا إن لاضطراب الانفعالي لا يؤثر فقط في الأفعال والحركات، ولكنه يشل النشاط العقلي ايضاً، وهذا ما يلاحظ عند الأفراد الذين يخشون الامتحانات وهكذا يتميز النصف الأول من المراهقة بزيادة في الانفعال يضاعف من حدتها عدم استقرار مزاجي كبير، ويظهر خاصة عند الفتيات.

ويزيد عدد الانفعالات ويزداد عمقها ايضاً، ويرجع هذا كما رأينا، إلى قيام الدفع الجنسي من جهة، ومن جهة أخرى كنتيجة للاتصالات الاجتماعية الكثيرة، المتنوعة. ويتغير تعبيرها ايضاً، ويعتقد ، وهكذا يتطور غضب الطفل إلى حد الاستنكار، ويستبدل الإشفاق بالرحمة. وقد يحدث أن تكتسب بعض الحالات العاطفية نغمة مرحة وحزينة في نفس الوقت . والاكتئاب الذي قلما يعرفه الطفل، وهو أحد الانفعالات المزدوجة التي يتميز بها من الخامسة عشرة، ويرجع إلى حزن لا سبب له، وتراخ وانتظار يشوبه القلق، كل هذه الأشياء التي لا تخلو من السحر لدى المراهق والتي تبدو ذات علاقة بانخفاض توتره النفسي.

ويخضع التغير في الحياة الانفعالية لتنظيم هرموني جديد، وكذلك للجهاز العصبي التلقائي. وبفضل هذين الجهازين، يبدو الجسم وكأنه قد زاد تأثراً بانفعالات جديدة لا تظهر إذا ما توقفا عن أداء دورهما.

ولا تعتقد أن هذا التزايد في الانفعال يشعر الشباب دائماً بالتوجس والخوف. ولا شك أنهم يظهرون بسببه أقل اتزاناً من الأطفال الذين يبدون لنا غير مبالين، أمام أكثر المشاهد إيلاماً. كما أنه أحد مصادر "الخجل" الشائع عند المراهقين حتى إن لاكروا J. lacroix يرى فيه سلوكاً مميزاً لإحدى فترات نموهم. ولكن لا تنس أن هذا الفيض من الانفعالات سرعان ما يجد ما يقابله من "ضبط النفس" المتزايد. ولما كان المراهق لا يقوى على تحمل الانفعالات القوية المتنوعة، فإنه يصير أكثر قدرة على الكب وكبح جماع عاطفته- وهذا ما يعني أن إرادته تقوي. ويميل بعض الشباب في هذا السن إلى اللامبالاة. ولا تجد هذه اللامبالاة ما يضارعها إلا عند الفتيات اللاتي يحتفظن بورودهن في مأمن من أعين الغرباء. ومع ذلك يبدو أن الدفع الانفعالي لا يقوى عند جميع الأفراد، وأنه لا يغمر الشعور كله بصفة مستمرة إلا في بعض الحالات المرضية.

خيال الشباب: ويدهش لزيادة الخيال أقل المراقبين دقة. ففي الطفولة الثالثة، يكون الذكاء في جوهره عملياً، فيقتصر الفضول على مجرد الأشياء والمعلومات. أما عند البلوغ، فيصير ذاتياً، وكذلك قادراً على البناء وإقامة العلاقات القوية، ويعتمد على ذكريات عديدة وقراءات يشيد بها عالماً من المشروعات والتوقعات. وبينما كان الطفل يعيش على حاضر، ينظم المراهق فكرة التوقيت النفسي في اتجاهي الماضي والمستقبل. ويقتصر النشاط الارتقابي على مجرد الاهتمام بالحاضر، ومن هنا يكون تكيفه بالواقع ضعيفاً. وعلاوة على ذلك، تزيد قدرته على التصور العقلي لشخص أو لمشهد ما حتى إنه يكاد يخلط

بين الحقيقة والخيال. وتستطيع الفتيات خاصة أن تعشن على "أحلام اليقظة" في غمار الحياة اليومية. ويلاحظ كذلك أشكال مختلفة من "جنون الكذب Le mytnonanie" في صورة خيال كاذب. وينتاب الحقيقة في المراهقة تشويهاً كبيراً، إذ إنها تفسر من خلال أفواج من الصور تجعل شهادة الشباب في حاجة دائماً للإثبات، ويعمل خيال الشباب على الربط عن طريق التقليد بين عناصر حقيقية ليضع منها جديداً، وذلك بطريقة آلية وصفها تارد Tarde الذي كان يرى في هذا الإبداع "تفاعلاً بين أنواع من التقليد" ويبدو أيضاً أن أبسط الهزات العاطفية تتسبب تلقائياً في إخراج مجموعات من الصور. وأخيراً ، يقوم نشاط تصوري يكون تحت تصرف الوهم.

ويحب الشباب المجهول والتجديد اللذين يخضعان لنزواتهم أكثر من معطيات الخبرة. ويظهر حبهم لقصص المغامرات فيما بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة، وكذلك حبهم للرحلات التي يجدون فيها نوعاً من الاكتشاف. ثم تبدو لهم المغامرة كعملية خارجية ، ولذلك يبحث خيالهم عن أساليب مختفية في الشعر الغنائي أو الرمزي وفي القصص العاطفي. وهذه هي أفضل اللحظات للخيال وقصور الرمال والأوهام التي تعتز بها الفتيات خاصة، وكلها تجعل التكيف بالحياة عسيراً ويخشى منها على تزييف الحكم في بعض الرؤوس الضعيفة.

ولكن هل هذا هو عالم الذي يظهر في سن الخامسة؟ وهل يجب اعتبار هذا التفكير الخيالي أقل مرتبة من التفكير العملي في الطفولة الثالثة؟ لا. بل ويجب التفرقة بعناية بين النشاط الطبيعي في خيال المراهق وأشكال النكوص عند المصابين بالعصاب. وهذا النشاط غنى بالإمكانيات الجديدة في مجال الاختراع والتعبير، ويستخدم كوسيلة لبلوغ التقدم الفكري. فإذا سلمنا مع جيوم p. Guillaume أن الخيال، أكثر من عملية الذكاء نفسها. مميز للإنسان، لكان

علينا أيضاً أن نرى في المراهقة مرحلة اساسية من مراحل النمو.

ويمكننا أن نقتنع بذلك إذا ما لاحظنا ارتفاعاً ملحوظاً في مجال الخيال الخلاق، وبخاصة في مجال الفن، إذ يتذوق المراهق الصور الشعرية، ولما كان أكثر إحساساً بجمال الأعمال الفنية، فإنه يسعى إلى التخلص من شحنته من الصور في محاولات أدبية وفنية وموسيقية يظهر فيها، إلى جانب بعض التقليد المتهور، ألوان من التوفيق الشخصي. وهكذا يمكننا القول إن الخيال يسمح للشباب باكتشاف نفسه واكتشاف الآخرين والحدس بالعالم والحياة.

وقد يكون خيالهم في الواقع على شيء من السذاجة وعدم الثبوت إذ تتجمع صورهم كمخططات دائمة التغير، ولكنها فورة من الصور تحيط ببعض الدوافع مثل الحب والحياة التي يهدف إليها الخ... وهكذا كان الاعتقاد بثراء هذا الخيال، فهو يتزايد بلا شك، خاصة لدى الفتيات اللاتي لا ينتهين من نسج القصص حول عدد صغير من الموضوعات. ومع ذلك، فهو في الحقيقة لا يكون أكثر تألقاً أو اقل شططاً. وأنسب الفترات لهذا الخيال هي الفترة التي تمتد ما بين سن السابعة عشرة والعشرين.

وأشكال خيال المراهق متعددة، وتتراوح بين الحلم والرمزية الصوفية. وأبرز هذه الاشكال هو بلا شك " أحلام اليقظة" التي تصير أحد أساليب التفكير، ويفضل هذا الأسلوب عند البلوغ . ويظهر فيه أثر انفعال بسيط يؤدي إلى خلق الصور الأولى، ثم يجنح بها الخيال بعيداً عن التفكير الذي يتدخل بعد ذلك بالربط بين النزعات والذكريات والأفكار، وكأنه بذلك قد انزلق على سفح منحدر يؤدي به إلى عالم نصف خيالي ولكنه يتفق دائماً تماماً مع الحالة العاطفية الراهنة.

سن العاطفة: وتوضح لنا انتفاضة الوجدان وكذلك انتفاضة الخيال لماذا تعتبر المراهقة أنسب سن للعاطفة، ولما كان الانفعال قريباً جداً من كيان الفرد، كان في العادة مصدراً للاضطراب ولكنه سرعان ما يختفي، وما أن يمتد بالصور العقلية إلى المستوى الذهني من الشعور، حتى تهيئ له هذه الصور بعض الاستقرار عن طريق التذكر. وما العاطفة إلا نتيجة الجمع بين العناصر الانفعالية والعناصر الخيالية، وتظهر عندئذ كمنظم لحياتنا الوجدانية، وتختلف عن الانفعال إذ تؤدي حركة التعاطف مع شخص ما مثلا إلى عدة انفعالات ترتبط فيما بينها بنسيج من الذكريات والمشروعات والأحكام لتكون قصة ، هي العاطفة الدائمة في صورة صداقة.

والعواطف هي الثروة النفسية الحقيقية عند المراهقين ، وتبدو عند الطفل وقد تكونت من انفعالات شديدة وعنصر ضعيف محدد من التصور . أما عند المراهقين ، فتمتاز بنصيب كبير من التصور، وبفضله يمكن لكل اهتزاز انفعالي أن يخلق عاطفة لها قدرها.

ويتم خلال المراهقة إعادة تنظيم للعالم العاطفي،فتكتسب العواطف القائمة فيه مثل حب الذات وعاطفة البنوة، خصائص جديدة، فيزدهر التعاطف في أشكال متعددة من المودة، كما تظهر عواطف أخرى مثل الحب والكره والاحتقار من الإعجاب والحنين، بالإضافة إلى "عواطف سامية" مثل حب الجمال، وعواطف أخلاقية وأخرى دينية. ولن نستطيع دراستها كلها ، ولكنا سنصادف معظمها في دراستنا هذه. وستكون الصداقة والحب أكثر العواطف تميزاً ويمكنهما وحدهما أن يعطيانا فكرة كافية عن انتفاضة القلب.

خصائص العاطفة في المراهقة: ويسمح لنا التحليل الإجمالي الذي حاولنا القيام به، أن نحدد الخصائص العامة لوجدان المراهق مع مقارنته بوجدان الطفل.

ووجدان المراهق أكثر عمقاً، فالشباب أقل تلقائية وتعبيراً عن نفسه من الطفل. ويقوم بين الهزة الانفعالية ورد فعل الانا، نشاط عقلي تزداد تعقيداً كلما قويت عوامل الكف وبينما كانت الحياة العاطفية عند الطفل تدور في سطحية وبالإشارة المباشرة، تزداد عمقاً وتكتماً لدى الشباب الذين يمكنهم إخفاؤها بمهارة أو التعبير عنها بقوة. ويبدو لي هذا الخلاف بين المستوى الداخلي والمستوى الخارجي، ونجده أيضاً في مجالات آخرى، كأحد الخصائص الأساسية في الجهاز النفسي عند البلوغ.

ويصير المراهق كذلك أكثر إلماماً بإحساساته، ومن قبل كان قلما يحتفظ بالرغبات والانفعالات والعواطف على ضوء من التفكير، ولكنه ، منذ هذه اللحظة ، ينظم تحليله الداخلي ويزيد تقدماً في مجال العاطفة التي تمده بالعناصر الأولية اللازمة له.

ويتخذ الإحساس لدى المراهق صفة "الشغف passion" وقد أعلن روسو في كتابه "إميل" عن قدوم "سن الشغف" ويكرر شاتوبريان نفس الشيء . ولكن ماذا يجب أن نفهمه من كلمة "شغف"؟ إنها تعنى أولاً عاطفة قوية متزايدة يمكنها أن تغزو مجال الشعور كله وأن تعطل كل الطاقات وأن توجه السلوك كله، وهذا ما يرى في أنواع الحب والكره عند الشباب. ولكن هذا لا يكفي، إذ يمكننا أن نتحدث أيضاً عند شغف الأطفال باللعب مثلا، وهكذا يبدو أنه يلزم للشعب أن يكون الفرد مالكاً لكل إمكانياته من اللذة والألم، ويكاد يظن أن نمو الغريزة الجنسية هو الذي يسمح للشباب بمد عواطفهم بكل هذه القوة وهذا العنف للذين يميزان وجدانهم عن وجدان الطفل: وقد رأينا كذلك أن إحساسهم يزيد امتداداً تبعاً لاتساع الأفق الاجتماعي الذي كان من قبل محدداً في نطاق الأسرة والمدرسة. وأخيراً ، نجد أن هذا الإحساس يختلف شيئاً فشيئاً تبعاً للجنس كما

أوضحنا من قبل عدة مرات.

ولعلك قد لاحظت أنه من الصعب، بل من الزيف، أن نحاول تحديد مركز الحياة العاطفية عند الشباب من أنواع النشاط الأخرى لديهم. فقد قادنا الحديث عن انتفاضة القلب إلى معرفة نصيب الخيال منها، ولكي تتضح لنا الرؤيا يجب علينا أن نتجنب كل محاولة قديمة للفصل بين هذه الأنواع من النشاط،فإن الإحساس عند المراهق يسخر، أكثر من كل الأنواع الأخرى، من الحواجز الثابتة ، فهو يحيا بالخيال، ويغمر بدوره الخلق والذكاء والإرادة، كما أنه مركز على تطور يتم، وهذا هو آخر خصائصه وأهمها، وهذا أيضاً هو السبب الجوهري الجديد الذي يجعلنا نبدأ به رحلتنا النفسية للاستطلاع.

الصداقة عند الشباب: ولكي يمكنني الحديث عن جدارة عن صداقات الشباب وعن الحب الوليد عندهم، يجب أن أكون شاعراً، وشاعراً مبرزاً، ولكني لست كذلك ، ولذلك فبدلاً من إجهاد نفسي بما لا طاقة لي به، يحسن بي أن أجتهد في إظهار أي الأشكال تأخذ هاتان العاطفتان الأساسيتان في المراهقة ، وأي المشكلات تتسببان فيها.

ولنبدأ بالصداقة ما دامت هي التي تسبق عادة الحب.

وغالباً ما تكون العلاقة التي يقيمها الطفل خارج نطاق الأسرة غريزة عرضية أساسها اللعب. وقد تنشأ هذه العلاقات بحكم الجيزة أو العادة، ولكنها قلما تستمر بعد الافتراق، وتسهم في إشباع الحاجة الى الحياة الاجتماعية، وتظهر في الطفولة الثالثة، وتؤدي عند الأولاد إلى تكوين الجماعة، فيأخذ التعاطف بين الأطفال من نفس السن شكل زمالة ، أما بالنسبة لشخص أكبر سناً ، فيكون أشبه بعاطفة البنوة. أما الصداقات في المراهقة فتقوم على العكس من ذلك، على الاختيار والريبة والملكية المطلقة ، وتتعرض لكل هزات الحب، ومنها الغيرة .

وهذه الصداقة أقل نفعية من صداقات البالغين ولا تسمح بالحساب إلا نادراً. ويمكننا أن نرى فيها دفعة لا تقاوم من التعاطف تظهر للتعبير عن مشاركة عاطفية وعطف فعال.

وهناك على الأقل ثلاثة أنواع من الصداقة عند الشباب، وتقوم غالباً بين الشباب من نفس الجنس والسن، في المدرسة مثلاً. أما الاختيار، ولا يجد تبريراً له إلا فيما بعد، فينشأ عن اندفاع لا شعوري لاحق لظروف عرض: كإفشاء سر فلت من زميل وأتاح لك أن تلمح فيه الروح الشقيقة التي تبحث عنها، أو خدمة قدمها لك في لحظة عسرة. وهكذا تكون الثقة بالصديق، والإعجاب به، والرغبة في امتلاكه، والسعي إلى إظهار العاطفة بالهدايا، والسعادة في بذل التضحية وغالباً ما يضاف لذلك رغبة حقيقية في التزاوج الروحي والتقمص. ويحاول الصديقان اتخاذ نفس الميول ونفس الآراء، ويظهر التقليد حتى في طريقة قص الشعر أو الخط. وتعبر الرسالات المتبادلة عن حدة هذه الصداقة بعبارات ملتهبة. ولكن قلما يكون هذا الشعور بنفس العمق عند الصديقين، إذ إن أحدهما يحب، والآخر يستسلم لهذا الحب. ورغم ما بهذه الصداقة من إلحاح ساذج، فإنها لا تتردى في الانحراف، وذلك لبراءتها وتعطشها للإخلاص المطلق، ولرقتها البالغة في أغلب الأحيان وقد يقلق الوالدان والمربون لهذه العلاقات القوية ويخشون أن تنقلب إلى انحراف جنسي، ولكن هذه الحالة نادرة لأن هذه الصداقات تنشأ عن طباع رقيقة، مثالية يروعها بمجرد التفكير في الإثم، وقد يؤدي الشك من الشخص البالغ إلى تدنيس نقاء هذه العاطفة.

وربما تكون الصداقة التي تقوم بين مراهق وطفل يصغره نوعاً، أكثر تعرضاً للخطر بسبب فارق السن، ولكنها قد تكون أيضاً ذات أثر حسن على أصغرهما، فهي توفر له الحماية والتوجيه في عمله، وكذلك على أكبرهما الذي يرى نفسه

محملاً بمسؤولية أخلاقية، وهذا ما يعطيه فرصة لتأكيد ذاته . ولعلك تعلم بالفائدة التي أمكن استخلاصها من هذا الشكل من الصداقة الشابة في المدارس الإنجليزية ومدارس الجزويت.

وأخيراً قد نلاحظ قيام عاطفة شديدة بين مراهق وشخص بالغ تعتبر شخصيته لأعين المراهق مثالاً براقاً. ويوجد مثل هذا التعلق خاصة نحو المدرس، في كل البلاد، وغالباً بين الفتيات، وتمتلئ نفوس تلاميذ المدارس الداخلية بمثل هذه القصص الخفية التي تكشف عنها مذكراتهم، والتي يحرج لها أحياناً المدرسون. وفي هذه الحالة ، ينسب إلى الصديق، وأكثر منه الصديقة، كل أنواع الكمال. ولكن هؤلاء المدرسين هم أكثر الناس فهماً للشباب وأسراره وآماله، ولذا يكونون في أعين هؤلاء المتعبدين لهم أشبه بأنبياء يكشفون لهم عن قيم الحياة.

وتقوم صداقات المراهقة بدور كبير في تكوين الشخصية بفضل الخبرات التي تثيرها، كما أنها تعد الطريق لصداقات البالغين، وهذه أكثر تعقلاً، أساسها التقدير والثقة المتبادلة، ولكنها تعتمد بل وتهتدى بذكريات عن الشباب المتحمس. ويرى أيضاً في هذه الصداقات أول تعبير عن إنكار الذات الحقيقي، فهي ترغم الفرد على الخروج من نطاق ذاته، وتعتبر كذلك مدرسة يتعلم فيها الإخلاص. ولكن لنقي أنفسنا من الشطط، فقد تتحول إلى نوع من الوحدة بين اثنين قد تتعارض مع الحياة الاجتماعية الصريحة. وعلاوة على ذلك، فإن المراهق الذي يتعلق بشخص آخر، عادة ما يسقط عليه صورة مثالية لذاته، فهو يراه في الصورة التي يؤديها لنفسه، أو كبديل لنفسه أكثر منه "شخص آخر". ولكن يسقط هذا الوهم فيما بعد، فتموت الصداقة إذا كان الفارق كبيراً بين الصديق الذي تخيله المراهق والصديق الحقيقي. وحتى في هذه الحالة، تظل ذكرى هذه الصداقة غالية علينا إذ إنها ، في نظرنا نحن البالغين، تذكرنا بكل ما كنا نتمنى

وجوده عند الصديق، أي المثل الأعلى الذي كنا نحمله في أعماقنا.

الصداقة والحب: ولكن ما طبيعة هذه العاطفة القوية التي تخبو أمامها كل العواطف الأخرى؟ وتعتبر هذه العاطفة عادة مقدمة أو صورة غير حقيقية للحب الجنسي. ولا شك أن صداقة الشباب تشبه الحب، وبخاصة في "الغرام" الملتهب بين تلميذات المدارس الداخلية، ويزخر بالقبلات والمداعبات والعناق الحاني وكذلك تنمو هذه الصداقة بسهولة أكثر إذا ما كانت الظروف أو الحالة المزاجية مواتية لتأخير التفتح الجنسي الفعال. وأخيراً ، فإن الحالات التي تهوى فيها الصداقة إلى درك الانحراف في الجنسية المثلية، تعتبر دليلاً مقنعاً على وجود الصداقة التمهيدية أو المولدة للحب. ومع موافقتنا على هذا الرأي، يبقى لنا أن نلاحظ في معظم الحالات، عاطفة من المودة والحنان، تخلو تماماً من أي مظهر جنسي. فهل يجب إذن أن نذهب إلى النقيض وأن نعترف- كما يعتقد حديثاً- بالتمييز تماما بين صداقة الشباب والحب؟ ويبدو أن كلا التفسيرين غير صحيح، إذ إن الصداقة الطبيعية بين الشباب ترتبط تماماً بنشأة الحب، ولكنها ليست صورة مصغرة له . ولكي نفهم طبيعية الحب يجب أن ندرسه:

أساساً للحب الإنساني: جاء في "مذكرات" أميل Amiel:[1] " إننا نتحدث عن الحب قبل سنوات من معرفتنا له، ونحسب أننا نعرفه لأننا نسميه أو لأننا نكرر ما تتحدث به الكتب عنه. وهكذا لا نصادف إلا جهلا له درجات كثيرة، ودرجات من المعرفة الوهمية" ويمكننا تطبيق هذه الملحوظة على الحياة الفعلية كلها في المراهقة، إذ إن هذه الحياة تعرف الكثير من النشاطات التمهيدية. ولكن هذه الملحوظة صادقة تماماً فيام يختص بالحب، فإن الشباب من الجنسين

(1) كاتب سويسري من القرن التاسع عشر.

يحلمون بالحب قبل أن يشعروا به ، ويمكننا أيضاً أن نقول إنهم يعرفون "ترقب الحب" على شرط أن نضيف أن هذا الترقب ليس أملاً في معجزة تقع، بل ترقبها نشيطا، فعالاً، يجعل الشباب يسعى دائماً وراء العناصر الأساسية للحب.

فما هي هذه العناصر الأساسية؟ وأرى فيها عنصرين يعيشان منذ هذه اللحظة، ولكن يلزمهما أحياناً وقتا طويلاً كي يتفتحا في وحدة متناسقة، وقد لا يمكنهما ذلك على الإطلاق. وهذان الأساسان هما: الغريزة الجنسية وعاطفة المودة.

ولا شك أن نشأة الحب ترتبط بنمو الغريزة الجنسية في لحظة البلوغ ولكن لا يعني هذا أن هذا الدفع يولد الحب، وأن أحدهما يفسر الآخر ومع ذلك لا يمكننا فهم الحب الإنساني الطبيعي دون تفتح الغريزة. أما عاطفة المودة التي تزدهر في نفس اللحظة، فهي المكون الآخر اللازم للحب، ولكنها أيضاً ليست هي الحب، بل يبدو هذا الحب كنتيجة ونشاط متميز يجد جذوره في الغريزة والمودة ويتغذى عليهما لكي يفوتهما في النهاية، وهو اتجاه إلى الوحدة وإلى الكمال السامي.

ويمكننا الآن أن نحاول تعريف الصداقة بين اثنين من الشباب من نفس الجنس، بالنسبة للحب. فالصداقة تقوم على أساس من المودة، ومن هنا يكون التشابه بين الحب وإمكانية التحول إلى الانحراف الجنسي أو إلى حب مشوه إذا ما امتزج الدفع الجنسي بالمودة. ولكن إذا ما قويت المودة منذ البداية، فهي تعطى صداقة ، ثم يأتي إلحاح الغريزة الجنسية، فيصير الفرد عندئذ قادراً على أن يحب شخصاً من الجنس الآخر. ويمكن أيضاً لما حدث على التوالي أن يتم في نفس الوقت فيجد الحب الذي يتفوق فيه الجانب الجنسي ما يوازنه في الصداقة العميقة النقية، ولكن مع شخص ثالث. وهكذا تبدو صداقة الشباب قريبة من

الحب، ولكنها تتميز عنه، ومع ذلك يمكننا أن نرى أن التفاعل السيئ بين المودة والجنس يؤدي أحياناً لدى المراهقين إلى خلط بين العاطفتين.

نشأة الحب عند الشبان: ومع هذا التبسيط الكبير يبدو لي أنه يمكن دراسة نشأة الحب من خلال مشكلات ثلاث: فيجب أولاً أن يتمكن الدفع العضوي من الثبوت على شخص آخر من الجنس الثاني. وبعد ذلك يجب على الغريزة الجنسية وعاطفة المودة تحقيق اتفاق متناسق يسمح بقيام الحب. وثالثاً يجب انتظار نهاية النمو البيولوجي النفسي قبل إنتاج الحياة الجنسية والعاطفية للشخص البالغ. ولما كانت هذه المشكلات تظهر بشكل مختلف تبعاً للجنس، كان علينا أن نواجهها أولاً عند الشاب، ثم نرى ما تختلف فيه عند الفتاة.

سن البراءة: ولا تملك الغريزة الجنسية التي بفضلها يستمر النوع، منذ لحظة ظهورها، نفس الخصائص الملحة ذات الوجهة الواحدة التي ستكون لها فيما بعد. فقد رأينا أنها عند البلوغ تكون حائرة مخدرة، كما لا يمكن أن نعلم وقت بدايتها، وتلزم سنوات عديدة قبل أن ترسخ وتتحدد وجهتها. وتختلف التي تتبعها تبعاً للأفراد، إذا الطاقة الجنسية بدورها النوعي هي في نفس الوقت أكثر العناصر النفسية الفردية، ولذلك كان من العسير إيجاد مكان لها في تخطيط عام.

وتظهر الغريزة الجنسية عند الولد في البداية كانتباه للجسم وبخاصة للأعضاء التناسلية التي تصدر عنها الإثارات الأولى. ثم يزيد الفضول إزاء كل ما يتعلق بالجنس، وهذا ما تشهد به قراءات المراهق وأغانيه، ويلاحظ كثيراً بعض الحيرة على المراهق الشاب وهو في رفقة فتيات من سنه، وقد يعتريه أيضاً شيء من العداء لهن، ومع ذلك تعبر هذه الحركات الخرقاء الهوجاء عن اهتمام جديد بالجنس الآخر. وإزاء تسلط هذه الانفعالات عليه، فإنه لا يتطلع إلى ما هو أبعد

منها. وتستمر هذه المرحلة من سن الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة، ويعبر فيها بالطيش والعدوانية عن رجولته الوليدة، وتتصف هذه المرحلة بظهور تأخر مدرسي مألوف في المدارس تحت اسم "أزمة الصف الثالث" وتلازم هذه الدفعة الغريزة في نفس الوقت حاجة عميقة للحنان، "وهذا هو سن البراءة" الذي يحب الحب ولا يجرؤ عليه وينشد: " لا أعرف أي لهيب قد نفذ إلى أعماقي ، فلم أعد أسيطر على حواسي..."

ثم يقوى الاهتمام بالجنس الناعم، وهذه هي اللحظة التي ينتظر فيها الشباب الفتيات عند باب المدرسة، أو صديقة شابة عند خروجها من المكتب الذي تعمل فيه. ويعرفون الغزل، ويحاولون إثارة الاهتمام والإعجاب بهم.

انحرافات الغريزة: ولكن قبل أن يصل المراهق إلى هذه المرحلة، يمر بفترة من البلبلة، فإن الدفع الجنسي يتجه في قوة إلى الجنس المقابل فإذا ما قوى دون أن يجد توجيهاً طبيعياً له، فإنه يؤدي إلى السعى وراء الإشباع الذاتي في العادة السرية أو "رذيلة الوحدة" . وهذا الشكل من العشق الذاتي مألوف في البلوغ، وقد لوحظ من قبل عند بعض الأطفال وكذلك بعض الرضع، ولكنه ينتشر كثيراً فيما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة. حتى يكاد يرى فيه بعض الكتاب علامات النمو في هذه المرحلة، التي يرتد فيها النشاط الجنسي إلى جسم الشخص نفسه دون أن يشعر بحاجته لوجود رفيق ويتفشى هذا العشق الذاتي كالمرض المعدي في المدارس الداخلية، لأنه يخضع للتقليد. ويقود إليه الكبار من هم أصغر منهم سناً، وتتيح له كذلك الحياة العائلية الفرصة عن طريقة الأخوة والخدم. وهناك أسباب موضعية تلائم العادة السرية. منها مثلاً كل ما يؤدي إلى الحكة في المنطقة التناسلية وملامستها، كما أن لها دلائل معتادة نعرفها جميعاً: وهي شحوب الوجه وإحاطة هالات بالعين وظهور التعب والخمول وصعوبة تركيز الانتباه، وفي معظم الأحيان يتزايد خجل المراهق ويميل للعزلة وينام نوماً

مضطرباً.

وكان يرى قديماً في هذا النوع من الانحراف الغريزي شيئاً مروعاً، وكان يرجع إليه كل الأحداث العصبية أما الآن. فإن معظم الأطباء تقل قسوتهم إزاءه. ومع ذلك تظل العادة السرية كعادة مرذونة ترهق المراهق وتخلق الوسواس لدى ذوي الطباع الحساسة مع شعورهم بالخجل والإثم، كما تبدو كسبب لبعض الأمراض العقلية، وتشيع عند أصحاب التأخر العقلي خاصة في حالات البله، فتأخذ هنا شكل عادة قبيحة تتم بطريقة لا شعورية . وللعادة السرية أثرها في الاضطراب النفسي، ولكنها ليست سبباً له، وفي الواقع ليست العادة السرية ضارة إلا إذا استمر وجودها لما بعد أزمة البلوغ، فهي ليست إلا انحرافاً وقتياً للإثارة الجسدية التي لم تتحدد وجهتها بعد، ولكنها عند البالغ تكون سعياً وراء الإشباع الذاتي الذي يعبر عن نكوص عاطفي يهتم به الطب.

وفي العادة لا يكون هذا الانحراف خطيراً إذا حاولنا القضاء عليه بالحياة الصحية النشيطة مع تفادي كل اسباب الفراغ والوحدة، وكذلك إذا عرف الأب فيض حزنه من العواقب التي قد تجدها هذه الرذيلة على مستقبله ، ولكن المهم ألا يتصور المراهق أنه قد صار وحشاً لمجرد أنه استسلم للإغراء، فما العادة السرية إلا واحدة من الرذائل، بل ويمكن إصلاحها أسهل من غيرها على أن يجد المراهق بالقرب منه دعامات رحيمة حازمة لا وجوها صارمة قاسية.

وهناك انحراف ثاني أكثر خطورة ، هو الجنسية المثلية، أي السعي إلى إشباع الغريزة الجنسية مع شخص آخر من نفس الجنس، وتسمى باللواط le pederasty ويتفق الأطباء لحسن الحظ على ندرتها بين الشباب، ولا تكون المبادأة منهم، بل عادة من بالغ منحرف يبحث له عن رفيق، ولذلك كان من

الضروري أن نجنب المراهقين ارتياد الأماكن المشبوهة.

الحب الخيالي والحب الجسدي: فإذا ما ثبتت الغريزة الجنسية بطريقة طبيعية على الجنس الآخر، يجب أن تتوافق مع عاطفة المودة. ولكن هذين المكونين للحب يتطوران على مستويين مختلفين ويمكنهما البقاء منفصلين لمدة طويلة. ولذلك يشعر الكثير من الشباب بتعلق كبير وعاطفي نحو امرأة أو فتاة، والعواطف التي تعمل في هذا التعلق هي، إلى جانب المودة، الإعجاب الشديد والإخلاص والحاجة إلى فرض الحماية أو تلقيها. وتعتمد اللذة التي تشعر بها الفرد على وجود الشخص المحبوب وعلى اتفاق العاطفتين. ولا تختفي هنا المصاحبة الحسية، ولكنها تقع بالقليل، وتلعب أحلام اليقظة دوراً رئيسياً في هذا الحب الممزوج بالحنان، ويؤدي إلى احترام المرأة ، وقد يأخذ أحياناً شكلاً صوفياً، ولكنه لا يخلو من أخطار الأوهام التي يخلقها والتناقض الذي يقوم بين الحقيقة والمثل الأعلى. ولا يكون هذا الحب طبيعياً عندما لا يكون سوى مرحلة تسبق النمو الكامل للغريزة. ويشيع الحب الخيالي بين ذوي الطباع الرقيقة الذين تفزعهم الطاقة الجنسية ولا يسعون إلا إلى الكمال. ويتحول الحب الافلاطوني بذلك- مثل العشق الذاتي، إلى حب غير طبيعي عندما يستمر إلى ما بعد المراهقة، إذ قد يؤدي إلى الفصل بين الإثارة الجنسية وعاطفة المودة، فيستحيل ظهور الحب الإنساني الحقيقي.

والحب في واقعه تملك ، ولكنا يعرف أن هذا التملك قد يفشك، وهذه هي الحال عندما تتخلف إحدى القوتين اللتين أتينا على ذكرهما، فنرى فيه أحياناً مصدراً للذة الجسمية، وأحياناً مصدراً للذة المعنوية. وكلا الاتجاهين خطير، وهنا يجب أن نذكر قولة باسكال pascal :[1] ليس الرجل بملاك ولا بحيوان. وفي

(1) عالم رياضي وطبيعي وفيلسوف وكاتب فرنسي في القرن السابع عشر.

أحيان أخرى، يتجاور العنصران دون أن يثبتا على نفس الشخص: ومن هنا يكون التراوح والازدواج في الحياة، فلا يقنع الإنسان بإشباع. وكم نرى حالات فشل جزئي عندما يقاوم الشباب فورة الجنس وفعاليته بالهروب إلى العزلة والخجل المرضي، أو عندما يتعلقون بعواطف طفولتهم وعاداتها بل وملابسها أيضاً! ويظهر عند البعض الآخر خوف من الفشل في الحب أو الانطواء الحزين بعد الفشل، ويترتب عليهما وساوس خطيرة.

وتتنوع أنماط التوافق بين الغريزة والمودة، وكذلك التوقيت بينهما وهذا ما يخضع للحالة المزاجية والوسط والأخلاق العامة. فمثلاً نرى في أول الأمر نشأة الرغبة والسعى إلى الرفيق والتجربة الجنسية الأولى وتكون إما ملائمة وإما تترك في النفس امتعاضاً كبيراً. ثم علاقة أو عدة علاقات تكبر المودة من خلالها، وأخيراً يكون الزواج.

وعادة لا ينتهي تنظيم الوظيفة الجنسية بنهاية المراهقة ، ويكون أكثر تبكيراً عند العامل منه عند الطالب. ويكون ظهوره المبكر كنوع من الاختبار يصلح لتحديد شكلين لوجدان الشباب، بل وربما أسلوبين جوهريين للنمو سنحددهما فيما بعد[1]. ويبدو أن المبادأة المبكرة ترتبط بتطور متدرج وخيال ضعيف نسبياً. أما المبادأة المتأخرة على العكس، فتكون كخاتمة للنمو عن طريق ظهور هزات مفاجئة وحماس فياض في الخيال العاطفي.

وهكذا يأتي الحب القوي تارة بالرغبة وتارة بالمودة، ولكنه لا يزدهر إلا مع التنسيق بين الاتجاهين، فإذا لم يقم هذا التوفيق الحساس، فلن تكون هناك إلا حلول عرجاء مهزوزة يطلق عليها اسم الحب، ونجد صوراً عديدة له في المسرح

(1) في الفصل القادم.

والقصص المعاصرين.

البلوغ وسن الزواج: بقيت لنا مشكلة ثالثة، أقل تعقيداً ولكنها حساسة، فقد رأينا وجود فترة من عدة سنوات بين ظهور التهيجات على الجسم واللحظة التي يحصل فيها الفرد للزواج، أي بين سن البلوغ le puberte وسن الزواج la nubilite ، وتبلغ هذه الفترة حدها الأدنى عند البدائيين، إذ يكاد يعقب الزواج عندهم البلوغ، ولكنها تطول في المدنية الحديثة إذ لا يستطيع الشاب بعد البلوغ مباشرة أن يؤسس بيتا أو أن يعول أسرة، ومن هنا كان الاتفاق على قيام فترة بين حاجات الجسم والضرورات الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، وهي فترة من الانتظار القاسي، ولكن لحسن الحظ يمكن شغلها بأنواع من النشاط تسمح بتوجيه النزعات الجنسية الناشئة إلى مجال الفكر أو الن أو الرياضة أو الخدمة الاجتماعية، وتعتبر هذه الأنواع من النشاط مسكنات موفقة، يمكن الاعتماد على ما فيها من تغلب على عقبات لجذب الشباب إلى تجنب الإغراءات والانحرافات الخطيرة وحفظ مستقبلهم ومستقبل أسرهم المقبلة. وعلى كل تربية تستحق أن تسمى بهذا الاسم، أن تلائم هذا الانتظار ، ولن توفق إلا إذا كانت لا تشترط تأخير التنظيم الجنسي طويلاً، أي أن تحبذ الزواج المبكر.

الحب عن الفتاة المراهقة: وتختص المعلومات السابقة بالشباب، ولا تهم الفتيات إلا جزئياً، وعلينا هنا أن نذكر بعض الاختلافات الجوهرية بينهما.

فإن الإثارة الجنسية لا يتحدد موضعها بوضوح عند البلوغ، بل تظل عند الفتيات منتشرة لوقت طويل، وتتوزع على الجسم كله، ولذلك يقل شيوع العادة السرية بينهن، ويقوم بدلاً منها التأمل الذاتي بدور أكثر أهمية. ويدل الاهتمام الذي يعلقنه على جمال أجسامهن وزينتهن، على اتجاه إلى النرجسيين، إذ لا يصيبهن إلا القليل من خجل المراهقين، ولكنهن يملكن بدلاً منه "حياء" طبيعياً

ويختلط عندهن برغبة كبيرة في إثارة الإعجاب والتحفظ.وتحيلهن ظهور الغريزة إلى "غانيات" ويتحكم في هذا الحياء وهذا التبرج اتجاه عام أكثر سلبية، يتحول أحياناً عقب مرحلة الاضطراب السابق للبلوغ، إلى كسل يتعارض مع الميل للعراك والهياج عند الشباب. وأخيراً ، يحتل الخيال العاطفي عندهن منزلة كبيرة، فتكفي بعضهن مقابلة أو عدة عبارات عادية ليؤلفن عليها قصة حقيقية تدور بأكملها في رؤوسهن. وتنمو عندهن المودة قبل الرغبة وكلنا يعرف أن اللذة الجنسية تتأخر كثيراً في التفتح عند المرأة. وتمر المراهقات عادة بمرحلة من المودة الزائفة وصفها مندوس، وذلك قبل أن تبلغن "سن الرشاقة l'arge de grace" في حوالي الثامنة عشرة، وهذا ما يعني أن نموهن العاطفي يكون أكثر تبكيراً منه عند الأولاد ، كما تختلف عنه كذلك.

وتظهر هذه الاختلافات ، أو كما يقول علماء النفس، هذه الخصائص للتمايز الجنسي le dimorphisme sexuel بحركات مميزة لها، كما في التناقض بين الحركات المرنة التي تكاد تتضح فيها الأمومة ، عند الفتاة، وحركات الخشونة والرجولة عند الشاب.

ومع ذلك تحتفظ الحياة العاطفية للمراهقين بخصائص الجنسين في بعض النواحي، ويتضح هذا اللبس أكثر عند الولد، في أشكال جسمه وفي جهازه النفسي كذلك. ولعلك تذكر سحر المراهقين الذين رسمهم ليونارد دا فنشي، وهناك نظرية حديثة، هي نظرية مارانون Maranon، ترى طبيعية هذه الظواهر الطارئة في الازدواج عند المراهق، بينما ترى ظهور خصائص الرجولة عند الفتاة المراهقة شذوذاً، وهكذا يمر الرجل بسرعة عند البلوغ بمرحلة أنثوية قبل أن يصل إلى الرجولة. أما نمو المرأة فيتوقف على العكس من ذلك عند هذه المرحلة، فلا تصل إلى رجولة كاملة إلى مع سن اليأس، وعندئذ يزيد عندها نمو

شعر الوجه، وتصير شخصيتها أكثر صلابة. ولسنا بحاجة إلى قبول تفسير ازدواج الجنس كي نصل إلى الاعتراف بحقيقة وجود مرحلة من "التردد بين الجنسين" ويلزم لها توجيه جنس دقيق واحتياطات كثيرة يجب على المربي أن يتخذها.